

## الباب الرابع

### وحدانية الأسماء والصفات

## تمهيد :

الاسم هو علامة الشيء، وما يعرف به شخصه، وأسماء الله سبحانه وتعالى هي علامته وما يعرف به، وهي أزلية أبدية، وهي ما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»<sup>(١)</sup>. وأسماء الله سبحانه وتعالى مملوء بها القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْمُعَزِّزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾»<sup>(٢)</sup>.

أما الصفة فهي نعوت الشيء، وخصائصه، وصفاته سبحانه وتعالى أزلية أبدية. وهي موجودة في القرآن والسنة مثل الاستواء على العرش في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾<sup>(٣)</sup>، والمجىء في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا ﴿٢٢﴾﴾<sup>(٤)</sup>، والنزول في قول النبي صلى الله عليه وسلم - ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له<sup>(٥)</sup>.

(١) البيهقي - الأسماء والصفات، المركز الإسلامي للكتاب - القاهرة، ص ٤، الحديث

رواه البخارى.

(٢) سورة الحشر - الآيات ٢٢ - ٢٤.

(٣) سورة طه - الآية ٥.

(٤) سورة الفجر - الآية ٢٢.

(٥) ابن تيمية - شرح حديث النزول، ص ١، الحديث رواه البخارى.

وصفات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى صفات ذات وهى صفات أزلية،  
يوصف بها الله سبحانه وتعالى ولا يوصف بأضدادها، مثل العلم والقدرة  
والحياة، وصفات أفعال يقتضى اتصاف الله بها وجود المفعول، ككونه  
خالقاً أو رازقاً، كما أنه يمكن أن يوصف الله بها وبأضدادها مثل: المحيى  
- الميت، المنتقم - الغفور، الجبار - الرحيم، المعز - المذل<sup>(١)</sup>.

والواقع أن موقف السلف من الصحابة من البحث فى العقائد كان موقفاً  
حكيماً، فهم فى الحقيقة كانوا يؤمنون بعقائد الإسلام إيماناً قوياً لا تشوبه  
شائبة، كيف لا وهم كانوا يقتبسون من أنوار النبوة؟ وهم كانوا إذا استشكل  
عليهم أمر من أمور العقائد أو الأحكام العملية لجأوا إلى الرسول صلى الله عليه  
وسلم؛ فكانوا متحققين بالإيمان علماً وحالاً، ومن هذا شأنه لا يستسيغ فى  
الحقيقة جدلاً عقلياً حول مسائل الإيمان، وهذا يفسر لنا لم لم يحتج الصحابة  
ومن تبعهم إلى التعمق والبحث الجدلى العقلى فى أمور الاعتقاد<sup>(٢)</sup>.

ولم يلبث أن تشكك بعض أهل الأهواء من المسلمين فى العقيدة الإسلامية،  
وذلك فى أواخر عهد الصحابة فأطلقوا العنان لتأويل النصوص القرآنية المتعلقة  
بالذات والصفات، وذهبوا فى تأويلهم مذاهب بعيدة عن مذاهب السلف،  
فأثاروا مشكلات وشبهات<sup>(٣)</sup>.

وأول من أظهر هذه البدعة فى الإسلام «الجعد بن درهم»، ضحى به  
خالد بن عبد الله القسرى فى يوم النحر، وقال ضحوا أيها الناس تقبل الله  
ضحايكم فإنى مضح، بالجعد بن درهم. إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم

(١) د. أحمد محمود صبحى - فى علم الكلام، جزء ١، ص ١٣٠.

(٢) د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى - علم الكلام وبعض مشكلاته، الطبعة الأولى - القاهرة

١٩٦٦، ص ١١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢.

خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه<sup>(١)</sup>.

ومن الشبهات التي أثيرت حول العقائد أيضاً، وذلك قبل المائة من سنى الهجرة شبّهات جهم بن صفوان الذى ظهر - كما يذكر المقرئى - ببلاد الشرق، وتكلم فى الصفات بعد أن لم يكن الكلام فيها معروفاً، فنفى أن يكون لله تعالى صفة، وبت الشك فى نفوس المسلمين، واجتذب إليه أنصاراً كثيرين يميلون لرأيه، ويؤيدون فكرته، فأكبر أهل الإسلام بدعته، ورموا بالضلالة أصحابها، وحذروا الناس من الجهمية، وعادوهم فى الله وتولوا الرد على حججهم<sup>(٢)</sup>.

وقد ذهب جهم بن صفوان إلى أنه لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضى تشبهاً، فنفى كونه عالماً وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق. ولما جاء المعتزلة، أخذوا عن جهم وأتباعه فكرة نفى الصفات، ومن هذا لقبهم خصومهم - ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - بالجهمية، لموافقتهم لهم فى هذا الصدد، وقد رفض المعتزلة هذه التسمية وتبرأوا من الجهمية، لأن الجهمية كانت تقول بالجبر، يدلنا على ذلك أن واصل بن عطاء قد أرسل إلى جهم بن صفوان من يناظره ليقطعه، وهكذا كان المعتزلة يفتقون من الجهمية موقف الخصومة على الرغم من موافقتهم لهم فى القول بنفى الصفات<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن تيمية - مجموعة الفتاوى، الجزء الخامس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

بيروت ١٩٨٣، ص ٦.

(٢) د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى - علم الكلام وبعض مشكلاته، ص ١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٣.

## الفصل الأول

### نقد شيخ الإسلام ابن تيمية للمذاهب الإسلامية

أولاً: نقد شيخ الإسلام ابن تيمية للأشاعرة:

الأشاعرة أحد المذاهب العقائدية الإسلامية وينتسب الأشاعرة إلى أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤هـ)، وينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>. وكان الإمام أبو الحسن الأشعري معتزلياً، درس على يد أبي علي الجبائي ثم خرج على مذهب المعتزلة، وأسس مذهب الأشاعرة. ومذهب الإمام أبي الحسن الأشعري هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه، يقول الإمام أبو الحسن الأشعري في ذلك: «وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله استوى على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى

(١) مجدى محمد رياض - الفلسفة الخلقية عند الأشاعرة، هيئة الكتاب - الطبعة الأولى

الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿٥﴾<sup>(١)</sup>. وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْبَلَدِ  
 وَالْإِكْرَامِ ﴿٧﴾<sup>(٢)</sup>، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ ﴿٧٥﴾<sup>(٣)</sup>  
 ، وكما قال: ﴿بَلْ يَدَاؤُهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴿٦٤﴾<sup>(٤)</sup>، وأن له عيناً بلا كيف كما  
 قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴿١٤﴾<sup>(٥)</sup>، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً،  
 وأن لله علماً كما قال: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ ﴿٣٣﴾<sup>(٦)</sup>، وكما قال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ  
 مِنْ أَنْثَى وَلَا نَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿٤٧﴾<sup>(٧)</sup>، وثبت له السمع والبصر ولا تنفى ذلك  
 كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج<sup>(٨)</sup>.

وهكذا نجد الإمام أبو الحسن الأشعري ملتزماً بكتاب الله وسنة رسوله  
 صلى الله عليه وسلم، فهو يثبت أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، ولا يقوم  
 بتأويلها أو نفيها كما فعلت المعتزلة والجهمية والخوارج.

ولذلك نجد شيخ الإسلام ابن تيمية عندما ينقد الإمام أبا الحسن الأشعري،  
 لا يقوم بنقده بعنف كما يفعل مع المذاهب الأخرى كالمعتزلة مثلاً، بل  
 يذكر أنه أقرب إلى السنة منهم، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية  
 - والأشعري وأئمة أصحابه كأبي الحسن الطبري وأبي عبد الله مجاهد  
 الباهلي، والقاضي أبي بكر متفقون على إثبات الصفات الخيرية التي ذكرت

(١) سورة طه - الآية ٥.

(٢) سورة الرحمن - الآية ٢٧.

(٣) سورة ص - الآية ٧٥.

(٤) سورة المائدة - الآية ٦٤.

(٥) سورة القمر - الآية ١٤.

(٦) سورة النساء - الآية ١٦٦.

(٧) سورة فصلت - الآية ٤٧.

(٨) أبو الحسن الأشعري، الديانة، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأولى، ص ٨ - ٩.

فى القرآن كالأستواء والوجه واليد وإبطال تأويلها لى فى ذلك قولان أصلاً ولم يذكر أحد عن الأشعرى فى ذلك قولين أصلاً، بل جمىع من يحكى المقالات من أتباعه وجرهم يذكر أن ذلك قوله، ولكن لأتباعه فى ذلك قولان، وأول من اشتهر عن نفىها أبو المعالى الجوينى، فإنه نفى الصفات الخبرية، وله فى تأويلها قولان، فى الإرشاد أولها ثم إنه فى الرسالة النظامية رجع عن ذلك وحرّم التأويل وبين إجماع السلف على تحريم التأويل واستدل بذلك على أن التأويل محرّم لى بواجب ولا جائز، فصار من سلك طريقته ينفى الصفات الخبرية، ولهم فى التأويل قولان، وأما الأشعرى وأئمة أصحابه فإنهم مثبتون لا يردون على من ينفىها أو يقف فيها، فضلاً عن يتأولها. وأما مسألة قيام الأفعال الاختيارية فإن ابن كلاب والأشعرى وجرهما ينفونها<sup>(١)</sup>. وهكذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يشيد بالإمام أبى الحسن الأشعرى، فهو يثبت الصفات الخبرية كما جاءت فى القرآن والسنة، ولكن تأويل الصفات الخبرية أو نفىها جاءت عند متأخرى الأشاعرة مثل إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى (٤١٩ - ٤٥٩هـ) وذلك فى كتابه «الإرشاد» ولكن رجع عن ذلك، وحرّم التأويل فى «الرسالة النظامية»، وذلك كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، وذلك يدلنا على أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان على اطلاع واسع على المذاهب المختلفة وعلى مفكرى تلك المذاهب.

ولكننا نجد بعد هذه الإشادة بالإمام أبى الحسن الأشعرى يقوم بنقده فى مسألة الأفعال الاختيارية مثل المشيئة والقدرة، فالإمام أبو الحسن الأشعرى ينفى الأفعال الاختيارية هو وعبد الله بن كلاب (ت ٢٥٠هـ)، ولكننا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يثبتها.

(١) ابن تيمية - بيان موافقة صريح العقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج

السنة النبوية - الجزء الثانى، ص ١٠.

والإمام أبو الحسن الأشعري يحتج على نفى الأفعال الاختيارية بأنه لو جاز قيام الحوادث به لم يخل منها، لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيستدل على إثبات الأفعال الاختيارية بالسمع والعقل معاً، أما السمع كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢)، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦٥)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا نَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٥).<sup>(٣)</sup>

أما الاستدلال العقلي فإن قدرته سبحانه على ما يقوم به من الكلام والفعل صفة كمال كما أن ما يقوم به من العلم والقدرة صفة كمال ومن المعلوم أن من قدر على أن يفعل ويتكلم أكمل ممن لا يقدر على الخلق وقالوا الحى لا يخلو عن هذا والحياة هى المصححة لهذا كما هى المصححة لساير الصفات وإذا قدر حى لا يقدر على أن يفعل بنفسه ويتكلم بنفسه كان عاجزاً بمنزلة الزمن والأخرس كما أنه إذا قدر حى لا يسمع ولا يبصر كان أصم أعمى<sup>(٤)</sup>.

### ثانياً: نقد شيخ الإسلام ابن تيمية للمعتزلة :

المعتزلة أحد المذاهب العقائدية الإسلامية التى تنتسب إلى واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ)، والذين أطلقوا على أنفسهم أبطال «العدالة الإلهية والتوحيد»<sup>(٥)</sup>. ويتبلور فكرهم حول أصول خمسة هى: التوحيد والعدل والوعد

(١) سورة يس - الآية ٨٢.

(٢) سورة القصص - الآية ٦٥.

(٣) سورة التوبة - الآية ١٠٥.

(٤) ابن تيمية - مجموعة الفتاوى - الجزء الخامس، ص ٦١ - ٦٢.

(٥) Alfred Juillume - Islam p. 131 (٥)

والوعيد والمنزلة بين المنزلين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(١)</sup>، فمن اعتنق هذه الأصول الخمسة معاً فهو معتزلي.

والتوحيد عند المعتزلة هو التنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى في إطار الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(١١)</sup>، فينفون صفات الله سبحانه وتعالى إلى أبعد حد وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية هو نفى مفصل، فنجد هذا النفي عند المعتزلة لصفات الله سبحانه وتعالى فيما يذكره عنهم الإمام أبو الحسن الأشعري عندما يتحدث عن التوحيد عند المعتزلة فيقول في ذلك: «أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وليس بجسم، ولا شبح، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق، ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذى أبعاد وأجزاء، وجوارح وأعضاء، وليس بذى جهات، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا تجوز عليه المجاسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأسفار، ولا تدركه الحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولا تجرى عليه الآفات، ولا تحل به العاهات، وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له، لم يزل أو لا سابقاً متقدماً للمحدثات، موجوداً قبل المخلوقات، ولم

(١) د. محمد عمارة المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، دار الشروق - الطبعة الثانية ١٩٨٨،

(٢) سورة الشورى - الآية ١١.

يزول عالماً قادراً حياً، ولا يزال كذلك، لا تراه العيون، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأوهام، ولا يسمع بالأسماع، شيء لا كالأشياء، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء، وأنه القديم وحده، ولا قديم غيره، ولا إله سواه، ولا شريك له فى ملكه، ولا وزير له فى سلطانه، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق، لم يخلق الخلق على مثال سبق، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه، لا يجوز عليه اجترار المنافع ولا لحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذى غاية فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء، ولا يلحقه العجز والنقص، تقدر عن ملامسة النساء، وعن اتخاذ صاحبة والأبناء»<sup>(١)</sup>.

فالمعتزلة نفت كل صفة عن الله، وردت جميع الصفات إلى الذات؛ خوفاً من أن يؤدي الكلام فى الصفات إلى الشرك وهم يعدون أنفسهم المدافعين الوحيديين عن التوحيد التام. ومن جراء نفى الصفات ونفى كل مشابهة بين ذات الله وماهية المخلوقات، قالت المعتزلة إن الإنسان لا يمكنه أن يدرك ذات الله تعالى، كل ما يعلمه هو أنه موجود لأنه منح الوجود فقط للمخلوقات التى كانت فى حالة العدم<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك يمكن أن يتصف الله سبحانه وتعالى بصفات إيجابية، بعضها ينفرد به الله كالوحدانية والقدم والصدية، وهى صفات إيجابية لفظاً سلبية معنى، فالوحدانية تعنى نفى الشريك عنه، والقدم يعنى نفى الحدوث عنه والصدية تعنى احتياج الموجودات إليه مع عدم احتياجه إلى شيء،

(١) أبو الحسن الأشعري - مقالات الإسلاميين - الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية

- الطبعة الأولى ١٩٥٠، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) د. ألبير نصرى نادر - فلسفة المعتزلة - الجزء الأول، الطبعة الأولى، الإسكندرية

أما الصفات الإيجابية لفظاً ومعنى التي أثبتتها المعتزلة من صفات الذات، فهي القدرة والحياة والعلم، وهي صفات يوصف بها الله ولا يوصف بأضدادها من عجز أو موت أو جهل.

ولا يعنى إمكان إطلاق هذه الصفات - القدرة والعلم والحياة - على الإنسان مماثلة أو مشابهة بينه وبين الله، لأن هذه الصفات إنما تطلق على الله لذاته بينما تطلق على الإنسان لمعنى خارج عن ذاته<sup>(١)</sup>.

ولفهم الموقف المعتزلي في هذا الصدد لابد أن نضع في الاعتبار أن المعتزلة قد أرادوا الرد على فكرة الأقانيم لدى النصارى: إن القول بأن الذات الإلهية جوهر يتقوم بأقانيم أى صفات - هي الوجود والعلم والحياة - قد أدى إلى الاعتقاد باستقلال الأقانيم عن الجوهر، وإلى اعتبار الصفات أشخاصاً، وإلى تجسد الأقنوم الثاني - أقنوم العلم - فى الابن، فلمواجهة هذا الاعتقاد نفى المعتزلة وصف الله بأنه جوهر، واعتبروا الصفات هي الذات غير مغايرة لها، فصفت الله ليست حقائق مستقلة، وإنما هي اعتبارات ذهنية، ويمكن أن تختلف وجوه الاعتبارات فى النظر إلى الشيء الواحد دون أن يلزم عن ذلك التعدد فى ذاته، فيمكن أن نصف الجوهر مثلاً بأنه متحيز وقائم بذاته وقابل للعرض، كذلك الذات الإلهية واحدة وتتعدد الصفات بتعدد وجوه الاعتبارات فيقال عالم وتعنى إثبات علم هو ذاته، ونفى الجهل عن ذاته، ويقال قادر ونفى إثبات ذاته ونفى العجز، فالله حى عالم قادر بذاته لا بحياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته، وهذا هو مقصود قولهم صفات الله عين ذاته.

أما من أثبت معنى أو صفة قديمة زائدة على ذاته فقد أثبت إلهين، لأنه لو كانت الصفة مستقلة بذاتها زائدة على الذات قائمة بنفسها - وذلك هو التصور المسيحي - لتعددت الصفات الأزلية، ومن ثم تعددت الآلهة،

(١) د. أحمد محمود صبحي - فى علم الكلام، ج ١، ص ١٢٦.

إن حمل الصفات على أنها معان قائمة بالذات؛ تجعل الله جوهرًا تلحقه الأعيان وهذا ما ينكره المعتزلة بشدة، وإنما الله عالم وعلمه هو هو، قادر وقدرته هي هو، حي وحياته هي هو، أى أن علم الله هو الله، وكذلك الأمر فى كل من القدرة والحياة. وحدة مطلقة بين الذات والصفات، ولكن ما الفرق إذًا بين قولنا عالم وبين قولنا قادر، يرد المعتزلة: لاختلاف المعلوم عن المقدور، فإذا قلت: الله عالم أثبت له علمًا هو الله ونفيت عنه جهلاً، وإذا قلت قادر أثبت له قدرة هي الله ونفيت عنه عجزاً، وإذا قلت لله حياة أثبت له حياة ونفيت عنه موتاً، أو بتعبير آخر، معنى قولى عالم إثبات ذاته ونفى الجهل عنه، ومعنى قولى قادر إثبات ذاته ونفى العجز عنه، ومعنى قولى حي إثبات ذاته ونفى الموت عنه، واختلاف محل الصفات على الذات إنما يرجع إلى اختلاف أصدادها المنفية عن الله، فاختلاف كونه عالماً عن كونه قادراً أو كونه حياً إنما يرجع إلى اختلاف أصداد هذه الصفات من جهل وعجز وموت<sup>(١)</sup>.

صعوبة أخرى واجهها المعتزلة بعد أن ذهبوا فى التنزيه إلى حد نفى أدنى مماثلة بين الله والإنسان، ألا وهى الآيات التى توهم التشبيه، وقد تأولها المعتزلة على نحو يتسق مع تنزيههم المطلق لله.

لقد تأول المعتزلة الآيات التى يفيد ظاهرها أن لله يداً أو وجهاً أو عيناً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>. معنى قول اليهود «يد الله مغلولة» وصفة بالبخل وقوله «بل يده مبسوطتان» تعبير مجازى يدل وصفه على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه، لأن غاية ما يبذله السخى أن يعطى بيديه جميعاً فبنى

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) سورة المائدة - الآية ٦٤.

المجاز على ذلك، واليد عموماً تفيد النعمة أو التأييد أو النصرة ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٠) (١)، أو تشيير إلى ذات الله ﴿لِإِذَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٧٥) (٢). ﴿أَوْلَتْ بَرًّا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمْنَا﴾ (٧١) (٣) ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٧) (٤) ﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ (٩) (٥)، وجه الله هو الله ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان.

﴿وَلِصُنْعِ عَلَى عَيْنِي﴾ (٣١) (٦)، أى برعاية منى، والخطاب موجه إلى موسى ﴿أَنْ أَصْنَعُ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (٧٧) (٧)، أى بعلم منا.

كذلك أنكر المعتزلة كل معنى حسى يفيد لفظ الاستواء فى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٤) (٨)، فالاستواء بمعنى الاستيلاء أو التمكن (٩).

وإذا كانت المعتزلة قد نفتت صفات الله سبحانه وتعالى أو قامت بتأويلها، فإننا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يقوم بنقد المعتزلة نقداً عنيفاً، ويصف كلامهم بأنه نوع من السفسطة فى العقلية والقرمطة فى السمعية، فيقول فى ذلك « وهؤلاء الذين يعارضون الكتاب والسنة بأقوالهم بنوا أمرهم على

(١) سورة الفتح - الآية ١٠.

(٢) سورة ص - الآية ٧٥.

(٣) سورة يس - الآية ٧١.

(٤) سورة الرحمن - الآية ٢٧.

(٥) سورة الإنسان الآية ٩.

(٦) سورة طه - الآية ٣٩.

(٧) سورة المؤمنون - الآية ٢٧.

(٨) سورة طه - الآية ٥.

(٩) د. أحمد محمود صبحى، فى علم الكلام ج١ ص ٣٠.

أصل فاسد، هو أنهم جعلوا قول الله ورسوله من المجمل الذى لا يستفاد منه علم ولا هدى؛ فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكم والمحكم من كلام الله ورسوله هو المتشابه كما يجعل الجهمية من الفلاسفة والمعتزلة ونحوهم ما أحدثوه من الأقوال التى نفوا بها صفات الله ونفوا بها رؤيته فى الآخرة وعلوه على خلقه وكون القرآن كلامه ونحو ذلك، جعلوا تلك الأقوال محكمة، وجعلوا قول الله ورسوله مؤولاً عليها أو مردوداً، أو غير ملتفت إليه، ولا متلقى للهدى منه فتجد أحدهم يقول ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا له كم ولا كيف ولا تحله الأعراض والحوادث ونحو ذلك، وليس بمعين للعالم ولا خارج عنه، فإذا قيل إن الله أخبر أن له علماً وقدرة قالوا لو كان له علم وقدره للزم أن تجله الأعراض وأن يكون جسماً وأن يكون له كيفية وكمية وذلك منتف عن الله لما تقدم، ثم قد تقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قصد بما ذكره من أسماء الله وصفاته أموراً لا نعرفها، وقد تقول: إنه قصد خطاب الجمهور بإفهامهم الأمر على غير حقيقته؛ لأن مصلحتهم فى ذلك، وقد يفسر صفة بصفة، كما يفسر الحب والرضا والغضب والإرادة والسمع والبصر بالعلم، ويكون القول فى الثانية كالقول فى الأولى يلزمها من اللوازم فى النفى والإثبات ما يلزم التى نفاها، فيكون مع جمعه فى كلامه أنواعاً من السفسطة فى العقلية والقرمطة فى السمعية<sup>(١)</sup>، فالمعتزلة فى رأى شيخ الإسلام ابن تيمية يقومون بإجمال كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل صفات الله ورؤيته فى الآخرة وعلوه على خلقه وكون القرآن من كلام الله، ثم يقومون بنفى مفصل لكلامهم الذى ابتدعوه مثل الجسم والجوهر والعرض. ثم يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن المعتزلة

(١) ابن تيمية - بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منبج

يجعلون صفة مكان صفة أخرى مثل تفسيرهم السمع والبصر بالعلم والحب والرضا والغضب بالإرادة وهذا نفى لصفات الله سبحانه وتعالى، وكذب على الله وربوله وسفسطة في المعقولات، لأن الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يأتوا بهذه الأقوال المبتدعة. فالمعتزلة هنا في رأى شيخ الإسلام ابن تيمية شر من الخوارج لأنهم ارتكبوا أربع عظام أحدها: ردهم لنصوص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الثانى: ردهم ما يوافق ذلك من معقول العقلاء، الثالث: جعل ما خالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هى أصول الدين، الرابع: تكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطبتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة لصحيح المنقول وصریح المعقول<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: نقد شيخ الإسلام ابن تيمية للفلاسفة :

نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يقوم بنقد الفلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد فى مسألة وحدانية الأسماء والصفات، فنجده بالنسبة لابن سينا يقوم بعرض مذهبه أولاً، ثم يقوم بنقده بعد ذلك، وهو يفعل ذلك ملتزماً كما نراه دائماً بالكتاب والسنة، وأيضاً ملتزماً بالاتجاه العقلى، وأيضاً نراه فى نقده هنا فى غاية العنف، فيقول فى عرضه لمذهب ابن سينا فى وحدانية الأسماء والصفات: «وأما من يجعل وجود العلم هو وجود القدرة، ووجود القدرة هو وجود الإرادة فتقول هذه المقالة يستلزم أن يكون وجود كل شىء هو عين وجود الخالق تعالى وهذا منتهى الإلحاد وهو مما يعلم بالحس والعقل والشرع أنه فى غاية الفساد، ولا مخلص من هذا إلا بإثبات الصفات، مع نفى مماثلة المخلوقات وهو دين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذلك أن نفاة الصفات من المتفلسفة ونحوهم، يقولون إن العاقل والمعقول والعقل هو شىء واحد،

(١)- المصدر السابق: ص ١٦٦.

والعاشق والمعشوق والعشق واللذة واللذيق والملتذ هو شيء واحد، وأنه موجود واجب له عناية ويفسرون غايته بعلمه أو عقله، ثم يقولون وعلمه أو عقله هو ذاته وقد يقولون: إنه حى عليم قدير مريد متكلم سميع بصير، ويقولون: إن ذلك كله شيء واحد، فأرادته عين قدرته وقدرته، عين علمه وعلمه ذاته، وذلك أن من أصلهم أنه ليس له صفة ثبوتية بل صفاته إما سلب كقولهم ليس بجسم ولا متحيز وإما إضافة كقولهم مبدأ أو علة وإما مؤلف منهما كقولهم عاقل ومعقول وعقل ويعبرون عن هذه المعانى بعبارات هائلة كقولهم إنه ليست به كثرة كم ولا كثرة كيف أو أنه ليس له أجزاء حد ولا أجزاء كم، أو أنه لا يد من إثباته موحداً توحيداً منزهاً مقدساً عن المقولات العشر عن الكم والكيف والأين والوضع والإضافة ونحو ذلك ومضمون هذه العبارات وأمثالها نفى صفاته وهم يسمون نفى الصفات توحيداً<sup>(١)</sup>.

فابن سينا هنا يرد الصفات إلى ذات الله سبحانه وتعالى مما يؤدي إلى نفيها، فلا فرق بين وجود القدرة ووجود الإرادة ووجود العلم، وأيضاً لا فرق بين قولنا عاقل ومعقول وعقل، فهذه الألفاظ جميعها تعنى شيئاً واحداً، ومن هنا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية يرد على كلام ابن سينا من وجوه:

أحدها: أنه جعل عين العلم عين القدرة ونفس القدرة هي نفس الإرادة والعناية ونفس الحياة هي نفس العلم والقدرة ونفس العلم نفس الفعل والإبداع ونحو ذلك معلوم الفساد بالضرورة، فإن هذه حقائق متنوعة، فإن جعلت هذه الحقيقة هي تلك كان بمنزلة من يقول إن حقيقة السواد هي حقيقة الطعم وحقيقة الطعم هي حقيقة اللون، وأمثال ذلك؛ مما يجعل الحقائق المتنوعة حقيقة واحدة.

(١) ابن تيمية - بيان موافقة صريح العقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج السنة النبوية - الجزء الأول - ص ١٧٠ - ١٧١.

الوجه الثاني: أنه من المعلوم أن القائم بنفسه ليس هو القائم بغيره، والجسم ليس هو العرض والموصوف ليس هو الصفة والذات ليست هي النعوت، فمن قال إن العالم هو العلم والعلم هو العالم فضلاله بين، وكذلك معلوم أن العلم ليس هو المعلوم فمن قال إن العلم هو المعلوم والمعلوم هو العلم فضلاله بين أيضاً، ولفظ العقل إذا أراد به المصدر فليس المصدر هو العاقل الذى هو الفاعل ولا المعقول الذى هو اسم مفعول، وإذا أراد بالعقل جوهرًا قائمًا بنفسه فهو العاقل، فإذا كان يعقل نفسه أو غيره فليس عين عقله لنفسه أو غيره هو عين ذاته، وكذلك إذا سُمى عاشقًا ومعشوقًا بلغتهم أو قيل محبوب ومحب بلغة المسلمين فليس الحب والعشق هو نفس العاشق ولا المحب ولا العشق ولا الحب هو المعشوق ولا المحبوب بل التمييز بين مسمى المصدر ومسمى اسم الفاعل واسم المفعول والتفريق بين الصفة والموصوف مستقر في فطر العقول ولغات الأمم، فمن جعل أحدها هو الآخر كان قد أتى من السفسطة بما لا يخفى على من يتصور ما يقول، ولهذا كان منتهى هؤلاء السفسطة في العقليات والقرمطة في السمعيات.

الوجه الثالث: أن يقال الوجود المطلق بشرط الإطلاق أو بشرط سلب الأمور الثبوتية أو لا بشرط مما يعلم بصريح العقل انتفاؤه في الخارج، وإنما يوجد في الذهن، وهذا مما قرروه في منطقهم اليونانى، وبيّنوا أن المطلق بشرط الإطلاق، كإنسان مطلق بشرط الإطلاق، وحيوان مطلق بشرط الإطلاق وجسم مطلق بشرط الإطلاق، ووجود مطلق بشرط الإطلاق، لا يكون إلا في الأذهان دون الأعيان، ولما أثبت قداموهم الكليات المجردة عن الأعيان التى يسمونها المثل الأفلاطونية، أنكر ذلك حدّاقهم وقالوا هذه لا تكون إلا في الذهن<sup>(١)</sup>.

(١) المصدر السابق، ص ١٧١ - ١٧٣.

ثم نأتى إلى ابن رشد، فنجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية يبين مذهبه فى وحدانية الأسماء والصفات، ثم يقوم بنقده بشرح مستفيض ويبين سفسطه فى هذا الكلام، أما الكلام عن مذهبه «فيقول عنه شيخ الإسلام ابن تيمية» قال وأما أن يكون العالم والعلم شيئاً واحداً فليس ممتنعاً، بل واجب أن ينتهى الأمر فى أمثال هذه الأشياء إلى أن يتحد المفهوم فيها، وذلك أن العالم إن كان عاناً بعلم فالذى به العالم عالم أخرى أن يكون عاناً وذلك أن كل ما استفاد صفة من غيره فتلك الصفة أولى بذلك المعنى المستفاد أمثال ذلك أن هذه الأجسام الحية التى لدينا ليست حية من ذاتها، بل من قبل حياة تحلها، فواجب أن تكون تلك الحياة التى استفاد منها ما ليس بحى الحياة حية بذاتها أو يقضى الأمر فيها إلى غير نهاية وكذلك يفرض فى العلم وسائر الصفات»<sup>(١)</sup>.

فابن رشد هنا يرد جميع الصفات إلى الذات كما فعل ابن سينا وكما فعلت أيضاً المعتزلة، حتى إنه جعل العالم والعلم شيئاً واحداً والحق والحياة شيئاً واحداً وهكذا فى سائر الصفات، فإلله سبحانه وتعالى عند ابن رشد يجب أن يكون واحداً من جميع الوجوه وغير مركب أصلاً لا من شرط ومشروط ولا من علة ومعلول.

ومن هنا يقوم شيخ الإسلام ابن تيمية بنقد ابن رشد نقداً شديداً ويصف كلامه بأنه ضرب من الجنون، ويتمثل هذا النقد فى ثلاث نقاط هامة:

الأولى: يلزم النفاة أن تكون الصفات المختلفة، ترجع إلى ذات واحدة؛ فيكون مفهوم العلم والقدرة والإرادة مفهوماً واحداً وأنها ذات واحدة، وأن يكون العلم والعالم والقدرة والقادر والإرادة والمريد واحداً، وقد قال إن هذا

(١) ابن تيمية - بين موافقة صريح العقول نصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج انسة النبوية - الجزء الثالث، ص ٢٧٢.

عسير، قلت: بل الواجب أن يقال إن هذا مما يعلم فساده بضرورة العقل فمن جعل العلم هو القدرة، والقدرة هي الإرادة وجعل الإرادة هي المرید والعلم هو العالم والقدرة هي القادر، كان مخالفته للعلوم الضرورية وسفسطته أعظم من سفسة كثير من السوفسطائيين.

الثانية: وقول ابن رشد كون العالم والعلم شيئاً واحداً ليس ممتنعاً بل واجب أن ينتهي الأمر في أمثال هذه الأشياء، إلى أن يتحد المفهوم فيها، فيقال له هذا من أعظم المكابرة والسفسة والبهتان، وقوله إن العالم إذا كان عالماً بعلم فالذى به العالم عالم أخرى أن يكون عالماً إلى آخر كلامه، كلام في غاية الفساد، كما أنه إذا قيل إذا كان الضارب ضارباً بضرب فالضرب أولى أن يكون ضارباً، والقائم إذا كان قائماً بقيام فالقيام أولى أن يكون قائماً، والمحيى المميت إذا كان محيياً مميتاً بإحياء وإماتة للإحياء والإماتة أولى أن يكون محيياً مميتاً وبالجملة، فهذا يلتزم نظيره في عامة أسماء الله الحسنى وفي أسماء نبيه صلى الله عليه وسلم وأسماء سائر الموجودات المشتقة؛ يلزم أن يكون المصدر الذى اشتق منه الاسم أحق بالاسم من الفاعل، ويكون مسمى المصدر الذى هو الحدث أحق بأسماء الفاعلين والصفات المشبهة بها من نفس الفاعل الموصوف وتصور هذا الكلام كاف في معرفة فساده.

الثالثة: قوله: أن واجب الوجود يجب أن يكون غير مركب من شرط ومشروط، فيقال له قد تقدم أنكم أنتم سميتم هذا تركيباً، وهو لا يسمى تركيباً في لغة من اللغات المعروفة لبنى آدم، بل إنما سماه تركيباً متأخر، وكم كابن سينا وأمثاله، وأما قداموكم فقد ذكرتم عن أرسطو طاليس أن كل تركيب فهو كائن عنده فاسد والسماء عنده ليست كائنة فاسدة؛ فهو لا يسمى السماوات وفيها من الكواكب مركبة مع أنها أجسام متميزة متحركة، تقوم بها الأعراض، فكيف يسمى ما كان حياً عالماً قادراً مركباً.

فيقال له : لم قلت إن ما كان مركباً من شرط ومشروط لا يكون واجب الوجود، وأما قوله لأن تركيبه إذا كان واجباً بغيره لا بذاته ؛ لأنه يفسر تقدير مركب قديم من غير أن يكون له مركب، فيقال له : هذا هو البحث اللفظي الذي ذكرنا هذا لأجله والمركب الذي يفتقر إلى مركب هو ما ركبه غيره، كما أن المحرك الذي يفتقد إلى محرك ما حركه غيره، ولم يقل أحد من العقلاء إن واجب الوجود مركب ركبه غيره؛ وأنتم إذا سميت اجتماع الذات والصفات تركيباً لم تريدوا بذلك إلا الاجتماع والتعدد والتآلف وكثرة المعاني ونحو ذلك، لم تقصدوا بذلك أن هناك فاعلاً لذلك، وإن أردتم ذلك كان باطلاً، وبطل اللفظ والمعنى جميعاً، فإن أصل الكلام أن الواجب إذا كان ذاتاً موصوفة بصفات كان مركباً، فإن أراد المرید كان له من ركبه من الذات والصفات كان التلازم ممنوعاً، بل هو باطل ضرورة، فإننا إذا قدرنا واجب الوجود بنفسه الغنى عن الفاعل موصوفاً بصفات لازمة له؛ امتنع أن يكون للواجب بنفسه المستلزم لصفاته من مركب بينه وبين صفاته؛ فإنه كونه واجباً بنفسه، يمنع أن يكون له فاعل وكون صفاته لازمة له يمنع جواز مفارقتها له ويمنع افتقارها إلى من يجعلها فيه<sup>(١)</sup>.



(١) المصدر السابق، ص ٧٣ - ٧٥.

## الفصل الثاني

### مذهب ابن تيمية في وحدانية الأسماء والصفات

أولاً: إثبات الأسماء والصفات عند ابن تيمية :

وبعد أن يقوم شيخ الإسلام ابن تيمية بنقد الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة، نجده يبين مذهبه في مسألة وحدانية الأسماء والصفات، ونجد هذا في معظم كتبه في العقيدة الإسلامية، فنجده على سبيل المثال يبين هذا المذهب في العقيدة الواسطية، في اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة، قوله «ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup>. فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى؛ فإنه أعلم سبحانه بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه»<sup>(٢)</sup>. ونستشف من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في حديثه عن الأسماء والصفات بعض الحقائق:

( أ ) الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله صلى

(١) سورة الشورى - الآية ١١.

(٢) ابن تيمية - العقيدة الواسطية - شرح محمد بن صالح العثيمين، دار البصرة، الطبعة

الأولى، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٦٣ - ١١٦.

الله عليه وسلم، فلا نزيد في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى. ولا ننقص شيئاً من أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، فنلتزم في هذا بكتاب الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية، والواجب على الإنسان نحو الأمور الغيبية أن يؤمن بها على ما جاءت، ودون أن يرجع إلى شيء سوى النصوص، قال الإمام أحمد رحمه الله: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث»<sup>(١)</sup>.

(ب) هذا الوصف لله سبحانه وتعالى يكون من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فالتحريف مثل التأويل عند علماء الكلام وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يحتمله اللفظ، والتعطيل هو إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات مثل رد المعتزلة والفلاسفة صفات الله سبحانه وتعالى إلى الذات الإلهية، وأيضاً هذا الوصف لله سبحانه وتعالى يكون من غير تكييف أى دون أن نذكر كيفية الصفة، فالإمام مالك رحمه الله سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(٢)</sup>. فقال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، ثم أمر به فأخرج»<sup>(٣)</sup>.

ومن غير تمثيل أى مماثلة الله سبحانه وتعالى بخلقه. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(٤)</sup> فليس كمثله شيء، رد على الممثلة، وهو السميع البصير رد على المعطلة.

(١) المنصر السابق، ص ٦٤.

(٢) سورة طه - الآية ٥.

(٣) ابن تيمية - شرح حديث النزول، ص ٣٦.

(٤) سورة الشورى - الآية ١١.

فأهل السنة والجماعة لا ينفون أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته ولا يحرفونها، ولا يلحدون فى أسمائه وآياته، ولا يكذبونها ولا يماثلون بين أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى وبين صفات خلقه، فهو سبحانه لا سمي له ولا كفو ولا ند ولا يقاس بينه سبحانه وبين مخلوقاته. هذا هو مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية فى الأسماء والصفات.

### ثانياً: بعض الأمثلة لإثبات الأسماء والصفات :

ولنطبق هذا المذهب على مسألتين من المسائل التى أفاض فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بشيء من التفصيل وهما مسألة النزول ومسألة القرآن:

#### ( أ ) مسألة النزول :

أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية صفة النزول، كما أثبت بقية الأسماء والصفات لله عز وجل، وحديث النزول فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعونى فأستجب له، من يسألنى فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له»<sup>(١)</sup>.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد من وجود قديم واجب بنفسه، يمتنع عليه العدم، فإن الوجود إما ممكن وإما واجب وقديم، فإذا كان ما يستدل به على نفى الصفات الثابتة يستلزم نفى الوجود الواجب القديم، ونفى ذلك؛ يستلزم نفى الوجود مطلقاً، علم أن من عطل شيئاً من الصفات الثابتة يمثل هذا الدليل كان قوله مستلزماً تعطيل الوجود المشهود. ومثال ذلك: أنه إذا قال: النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل النزول والاستواء إلا لجسم مركب، والله سبحانه وتعالى منزّه عن

(١) ابن تيمية - شرح حديث النزول، ص ١.

هذه اللوازم، فلزم تنزيهه عن الملزوم، أو قال: هذه حادثة والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب، وكذلك إذا قال: الرضى والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الأجسام فإنه يقال له: وكذلك الإرادة والسمع والبصر والعلم والقدرة من صفات الأجسام، فإننا كما لا نعقل ما ينزل وما يستوى ويغضب ويرضى إلا جسماً، لم نعقل ما يسمع ويبصر ويعلم ويقدر إلا جسماً. فإذا قيل: سمعه ليس كسمعنا، وبصره ليس كبصرنا وإرادته ليست كإرادتنا وكذلك علمه وقدرته.

قيل له: وكذلك رضاه ليس كرضانا وغضبه ليس كغضبنا وفرحه ليس كفرحنا ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا»<sup>(١)</sup>.

ولكن هل نزول الله سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا، يخلو منه العرش؟ يجيب شيخ الإسلام ابن تيمية بالنفى فيقول: «وإذا قيل: الصعود والنزول والمجيء والإتيان أنواع جنس الحركة، قيل: والحركة أيضاً أصناف مختلفة، فليس حركة الروح كحركة البدن، وحركة الملائكة كحركة البدن، يراد بها انتقال البدن والجسم من حيز. ويراد بها أمور أخرى، كما يقول كثير من الطبائعيين والفلاسفة، منها الحركة فى الكم كحركة النمو، والحركة فى الكيف كحركة الإنسان من جهل إلى علم.

وإذا عُرف هذا، فإن للملائكة من ذلك ما يليق بهم، وإن ما يوصف به الرب تبارك وتعالى هو أكمل وأعلى وأتم من هذا كله، وحينئذ إذا قال السلف والأئمة: كحماد بن زيد وإسحاق بن راهويه، وغيرهما من أهل السنة إنه ينزل ولا يخلو منه العرش، لم يجوز أن يُقال: إن ذلك ممتنع، بل إذا كان المخلوق يوصف من ذلك ما يستحيل من مخلوق آخر، فالروح توصف من

(١) ابن تيمية - شرح حديث النزول، ص ٢٥.

ذلك بما يستحيل اتصاف البدن به ، كان جواز ذلك في حق الرب تعالى أولى من جوازه من المخلوق كأرواح الآدميين والملائكة .

ومن ظن أن ما يوصف به الرب عز وجل لا يكون إلا مثل ما يوصف به أبدان بنى آدم ، فغلطه أعظم من غلط من ظن أن ما توصف به الروح مثل ما توصف به الأبدان»<sup>(١)</sup> .

إذن فشيخ الإسلام ابن تيمية يثبت النزول لله سبحانه وتعالى بلا كيفية ولا تمثيل كما هو مذهبه ، وأما ما حكاه ابن بطوطة الأندلسي في رحلته من قوله : «وكننت إذ ذاك بدمشق فحضرته (ابن تيمية) يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكي يعرف بأبي الزهراء وأنكر ما تكلم به فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته ، فقد تكلم أنصار ابن تيمية في ذلك وردوه بما لا يدع مجالاً للشك في بطلانه لا سيما وأنه مخالف لما ذكره ابن تيمية في عامة كتبه .

ويقول بعض الباحثين إن ابن تيمية كان محبوساً في المدة التي كان فيها ابن بطوطة بدمشق وعلى ذلك تكون هذه الواقعة مفتعلة من أساسها»<sup>(٢)</sup> .

### (ب) مسألة القرآن:

أثار المعتزلة بقولهم القرآن كلام الله المخلوق حفيظة المسلمين وعلماء الإسلام ، حتى إن العلماء والمخالفين لهذا القول أودوا وعُذِّبوا وسُجنوا ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ) .

(١) المصدر السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) محمد خليل هراس - ابن تيمية السلفي - ص ١٥٦ - ١٥٧ .

وموقف المعتزلة من مشكلة «كلام الله» أو «خلق القرآن» فرع من تصورهم للتوحيد، ذلك أن إنكار الاعتقاد بخلق القرآن يعنى إثبات قدمه، وكل ما هو قديم فهو إله، فانفراد الله بالألوهية يقتضى انفراده بالقدم، والقول بحدوث القرآن أو خلقه<sup>(١)</sup>.

فالكلام لدى المعتزلة - شأنه فى ذلك شأن السمع والبصر - ليس صفة من صفات الذات، فكلام الله - بما فى ذلك القرآن - ليس أزلياً، إذ كيف يكون كذلك وفى القرآن أمر ونهى ووعيد ووعد وكل ذلك يقتضى وجود المأمور أو المنهى أو الموعود، ولو كان الكلام صفة أزلية لأصبح القرآن قديماً ولشارك الله فى الألوهية، ذلك أن القدم صفة ذات للألوهية، فكل قديم فهو إله، إننا نجد للقرآن صفات لا يتصف بها القديم، فالقرآن يتجزأ ويتبعض، فيقال ثلثه وربعه ونصفه، وهو حروف منظومة وأصوات مقطوعة وهو محكم مفصل ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ، ثُمَّ فَصِلَتْ﴾<sup>(٢)</sup>. ومن ثم فهو مركب وهو أمر ونهى وخبر واستخبار ووعيد ووعد، كل ذلك يوجب كونه مخالفاً للقديم كما نجد القديم مخالفاً له من حيث كونه سبحانه عالماً حياً قادراً سميعاً بصيراً وكل ما كان مخالفاً للقديم فهو محدث<sup>(٣)</sup>.

ومن جهة أخرى يثبت شيخ الإسلام ابن تيمية صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، يثبتها بأدلة سمعية وأخرى عقلية، ومن الأدلة السمعية قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾<sup>(٤)</sup>. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) د. أحمد محمود صبحى - فى علم الكلام، الجزء الأول - ص ١٣٨.

(٢) سورة هود - الآية ١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٤) سورة النساء - الآية ١٦٤.

(٥) سورة الأعراف - الآية ١٤٣.

وأما الطرق العقلية فمن وجوه:

أحدها: أن الحى إذا لم يتصف بالكلام؛ لزم اتصافه بضده كالسكوت والخرس، وهذه آفة يتنزه الله عنها؛ فتعين اتصافه بالكلام، وهذا المسلك يسلكونه فى إثبات كونه سمياً بصيراً أيضاً، فإنه إذا كان حياً لم يكن سمياً بصيراً لزم اتصافه بضد ذلك من الصمم والعمى.

الثانى: أن الكلام صفة كمال، وهنا من جعله صفة لا تتعلق بمشيئته واختياره جعله كالعلم والقدرة، ومن قال: إنه يتعلق بمشيئته وقدرته؛ قال: كونه متكلماً يتكلم إذا شاء صفة كمال، وقد يقول بطرد ذلك فى كونه فاعلاً الأفعال الاختيارية القائمة بنفسه، ويجعل هذا كله من صفات الكمال، وقد يقول القدرة على ذلك هى صفة الكمال؛ إذ الكمال لا يجوز أن يفارق الذات؛ فإنه لم يزل ولا يزال كاملاً مستحقاً لجميع صفات الكمال.

الثالث: أن يقال المخلوق ينقسم إلى متكلم وغير متكلم، والمتكلم أكمل من غير المتكلم، وكل كمال هو فى المخلوق مستفاد من الخالق، فالخالق به أحق وأولى ومن جعله لا يتكلم فقد شبهه بالموات والجماد الذى لا يتكلم، وذلك صفة نقص، إذ المتكلم أكمل من غيره، قال تعالى فى ذم من يعبد من لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٨) (١). وقال فى آية أخرى ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ (١١٨) (٢).

والقرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية حروف ومعنى معاً، يقول فى ذلك «والذى كان عليه السلف والأئمة أهل السنة والجماعة أن القرآن الذى هو

(١) سورة طه - الآية ٨٩.

(٢) سورة الأعراف - الآية ١٤٨.

كلام الله هو القرآن الذى يعلم المسلمون أنه القرآن، والقرآن وسائر الكلام له حروف ومعان فليس الكلام ولا القرآن إذا أطلق اسماً لمجرد الحروف ولا اسماً لمجرد المعنى بل الكلام اسم للحروف والمعانى جميعاً<sup>(١)</sup>.

ويقسم شيخ الإسلام ابن تيمية بالنسبة لكلام الله المذاهب إلى ثلاثة أقسام الجهمية والكلابية وأهل الحديث الذين يذهب مذهبهم، يقول فى ذلك: «والناس فى هذا الباب ثلاثة أقسام الجهمية المحضة من المعتزلة ومن وافقهم، يجعلون هذا كله مخلوقاً منفصلاً عن الله تعالى، والكلابية ومن وافقهم يثبتون ما يثبتون من ذلك إما قديماً بعينه لازماً لذات الله وإما مخلوقاً منفصلاً عنه، وجمهور أهل الحديث وطوائف من أهل الكلام يقولون: بل هنا قسم ثالث قائم بذات الله متعلق بمشيئته وقدرته كما دلت عليه النصوص الكثيرة، ثم بعض هؤلاء قد يجعلون نوع ذلك حادثاً كما تقوله الكرامية وأما أكثر أهل الحديث ومن وافقهم فإنهم لا يجعلون النوع حادثاً بل قديماً، ويفرقون بين حدوث النوع وحدوث الفرد من أفرادها كما يفرق جمهور العقلاء بين دوام النوع ودوام الواحد من أعيانه؛ فإن نعيم أهل الجنة يدوم نوعه ولا يدوم كل واحد واحد من الأعيان الفانية»<sup>(٢)</sup>.

فشيخ الإسلام ابن تيمية يثبت كلام الله سبحانه وتعالى غير المخلوق كصفة لله سبحانه وتعالى من الصفات الاختيارية كالمشيئة والقدرة، ثم يفرق بين دوام النوع وحدوث أفراد هذا النوع. إذن فشيخ الإسلام ابن تيمية يثبت صفات الله سبحانه وتعالى، وهذه الصفات زائدة على ذاته تعالى يقول فى ذلك: «وإذا قال من قال من أهل الإثبات للصفات، أنا أثبت صفات الله زائدة

(١) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، الجزء الخامس، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) ابن تيمية - بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول - على هامش كتاب منهاج

السنة النبوية - الجزء الثانى - ص ٧٤ - ٧٥.

على ذاته؛ فحقيقة ذلك أنا أثبتتها زائدة على ما أثبتتها النفاة من الذات، فإن النفاة اعتقدوا ثبوت ذات مجردة عن الصفات، فقال أهل الإثبات: نحن نقول بإثبات صفات زائدة على ما أثبتته هؤلاء، وأما الذات نفسها الموجودة فتلك لا يتصور أن تتحقق بلا صفة أصلاً، بل هذا بمنزلة من قال: أثبت إنساناً لا حيواناً ولا ناطقاً ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ولا قدرة ولا حياة ولا حركة ولا سكون أو نحو ذلك، أو قال: اثبت نخلة ليست لها ساق ولا جرع ولا ليف ولا غير ذلك، فإن هذا يثبت ما لا حقيقة له في الخارج، ولا يعقل، ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات معطلة؛ لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى»<sup>(١)</sup>.

ولكن أليس إثبات الصفات مع الذات يتنافى مع وحدانية الله سبحانه وتعالى؟ يجيب شيخ الإسلام ابن تيمية بالنفي فيقول: «ولكن إذا قلنا إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهاً واحداً بجميع صفاته، وضربنا لهم في ذلك مثلاً فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جرع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها اسم واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها؟ فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد، لا نقول إنه قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى خلق لنفسه علماً والذي لا يعلم هو جاهل ولكن نقول لم يزل الله عالماً قادراً مالكاً لا متى ولا كيف، وقد سمى الله رجلاً كافراً اسم الوليد بن المغيرة المخزومي فقال: (ذرنى ومن خلقت وحيداً) وقد كان هذا الذى سماه الله وحيداً له عينان وأذنان ولسان وشفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة، فقد سماه الله وحيداً بجميع صفاته، فكذلك الله وله المثل الأعلى وهو بجميع صفاته إله واحد»<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن تيمية - شرح حديث النزول - ص ٦.

(٢) ابن تيمية - منهاج السنة النبوية - الجزء الأول - ص ٢٣٤.

## تعقيب :

هذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في وحدانية الأسماء والصفات، من تمسكه بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن إثباته للأسماء والصفات كما جاءت في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن هذا الإثبات للأسماء والصفات لا يتنافى مع وحدانية الله سبحانه وتعالى، لأن كمال الله وقدرته سبحانه وتعالى يثبتان أسماء الله وصفاته ولا ينفيانها. وإذا كانت هذه الأسماء والصفات يتصف بها المخلوق، فمن باب أولى أن يتصف بها الخالق سبحانه وتعالى مع قياس الفارق.

وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية قد قام بنقد المعتزلة والفلاسفة ممثلين في ابن سينا وابن رشد نقداً عنيفاً لنفيهم صفات الله سبحانه وتعالى أو تأويلها، فإننا نجد لا يقوم بنقد الأشاعرة هذا النقد العنيف؛ وذلك لأنهم يثبتون الأسماء والصفات كما أثبتها شيخ الإسلام ابن تيمية، فنجده ينقد الأشاعرة في الأفعال الاختيارية التي ينقونها مثل المشيئة والقدرة والكلام.

وإن كنا لا نرى هذا النفي للمشيئة والقدرة والكلام لله سبحانه وتعالى عند الإمام أبي الحسن الأشعري، فهو يثبت كل هذا؛ فيقول في كتابه الإبانة «ونقول إن كلام الله غير مخلوق وإنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن فيكون كما قال ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup>، وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله وأن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.

ونجد شيخ الإسلام ابن تيمية يفرق بين دوام النوع وحدوث أفراد هذا

(١) سورة النحل - الآية ٤٠.

(٢) أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ص ٩.

النوع، حتى لا يصطدم بالقاعدة التي ذكرها الإمام أبو الحسن الأشعري في رأيه وهي أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. والحقيقة أن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يحتاج إلى تبرير قيام الأفعال الاختيارية لله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون كما يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١)

والله سبحانه وتعالى يعلم كل صغيرة وكبيرة ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢). وهذا لا يتنافى مع وحدانية الله وكماله، بل هذه المشيئة وهذا العلم وهذه القدرة يثبتان هذه الوحدانية وهذا الكمال لله سبحانه وتعالى.



(١) سورة النحل - الآية ٤٠

(٢) سورة الأنعام - الآية ٥٩